يا فراشة لا تقربي اللهب!

الفراغُ بلا شكٍّ نعمةٌ، إذا أحسنَ الإنسانُ استغلالها فتحَ بابًا متسعًا يدخلُ منه إلى عالمِ أحلامِه فيحقِّقها، لكنَّه أحيانا يكونُ نقمةً إذا لم نستغله فيما هو مفيد... وحياةُ كثيرٍ من شبابنا تقعُ في ذلك النوع الثاني من هذا التصنيف... كما في مثل تلك الحالة...

مجموعةٌ من الفتيات في مطلعِ الشباب يتنافسن في كلِّ ما هو تافه وغير مفيد... يسعين دومًا خلف الأزياء، والموضة، ويتباهين بالوقت الذي يضيعنه في النوم حتى ينتصف النهار وقد يمتدُ بهن إلى وقت العصر، ويتنافسن في القدرة على السهر، وعدد الساعات التي يقضينها أمام "النت"، و"التليفزيون"... تلاقتْ "الشلةُ" في موقعها المفضَّلِ المطلِّ على حمام السباحة بالنادي الكبير الذي لا يجرؤ أحدُ عامةِ الشعبِ حتى على المرورِ من أمامه...

تفتَّحت مداركُ فتيات تلك "الشلة" على أنَّ الناسَ طبقاتٌ، ووضعت كلُّ واحدةٍ منهن نصائحَ والديها "كالحلقة في أُذُنِها": ألَّا تختلطي بالدهماءِ من عامةِ الناسِ! وكلُّ شيءٍ في حياتهن يخضعُ لتلك النصيحة... في المدرسة... في النادي... في السكن... حتى في وسائل المواصلات التي

تضطرهن ظروفهن أحيانًا إلى رؤية مرتاديها من خلف زجاج السيارة "الفاميه" الذي لا يُرى مَنْ وراءه... ولو كان بالإمكان لجعلن الزجاج معتمًا فلا يرين ما يمكن أن يفسد عليهن مزاجهن طوال يومهن... لكن لا حيلة، فقد تدفعهن الظروف ليرين البسطاء من الناس من خلال خدمات يقدمونها لهن، فلا يُعقل أنْ يخدمن أنفسهن وهن "كريمة المجتمع" والطبقة الراقية...

جلستْ فتياتُ "الشلة" حول حمامِ السباحةِ... وطرقتْ ضحكاتُهُن العاليةُ مسامعَ (حامد) ذلك الشاب الضئيل الذى كان يميِّزُه زيٌّ عمالِ النظافة بالنادي الشهير، فطمعَ في اختلاسِ المزيد من النظرات إلى الجميلات اللاتي أضفت إليهن ملابسهن المثيرة ما يذكِّره بنجمات السينما... تردَّدتْ أصداءُ تلك الضحكات العابثة، ثم خمدتْ لتغرقَ في بحرٍ من الصمتِ، وتبدَّلتْ بنظراتٍ حائرةٍ تنمُّ عن حالةٍ من السأمِ الشديدِ...

تحدَّثتْ إحداهُن عن وسيلةٍ يقضين بها على الملِلِ الذي استولى عليهن، وعلى الروتينِ المميتِ الذي اعتصرهن في قبضته، فالأيامُ عندهن متشابهةٌ... وأكبرُ مشكلةٍ يعانين منها ألَّا مشكلة! كلُّ الطلباتِ مجابةٌ... لا شيءٌ يستعصي عليهن... لابد من وسيلةٍ للتسلية تكسرُ حاجزَ الملِلِ! وأيُّ وسيلةٍ أفضل من التنافس على رهان! وهكذا اعتدن أن يشعلنها منافسةً حاميةً

حول أيِّ شيءٍ، وينقسمن فريقين أو أكثر في مضمارِ منافسةٍ على شيءٍ صعبٍ أو سهلٍ لا يهم، المهمُ تضييعُ الوقتِ بالتسلية و"التريقة" على خلق الله!

نظرتْ (ناني) الفتاةُ الثريةُ المدللةُ بارعةُ الجمال حولها تبحثُ عن مادة تستخدمها في ذلك الرهان... لم يطلْ بها البحثُ فقد وقعتْ عيناها على ذلك الشابِ المتطلِّعِ إليهن من بعيد...

حدَّدت (ناني) ذلك الشابِ ليكونَ رهانَها معهن عليه...

أجابتها رفيقتُها:

- ده شكله غلبان... إيه رأيك في واحد من أصحابنا الأولاد؟

داعبتْ (ناني) خصلاتٍ ذهبيةً انسدلتْ على عينيها، وقالتْ في ثقةٍ:

- دول طالعين فيها، والواحد منهم بيصاحب بنتين وثلاثة، لكن الشاب ده بمجرد ما أشاور له هيجيني... "مش هيستحمل في إيدي غلوة"...

وفي النهاية... استقرُّوا على ذلك الشاب... (حامد) عامل النظافة في النادي... اتفقن على تلك الخطةِ وتضاحكن:

- هتكون فُرْجَة هنتسلَّى ونضحك من هنا للصبح!

وانطلقتْ (ناني) لتنفيذِ خطَّتِها... سارتْ بعضَ خطواتٍ... وعندما أصبحتْ على مقربةٍ منه صوبَّتْ إليه نظراتِها الجريئةَ، وبادرته بابتسامةٍ

ساحرةٍ، ثم تظاهرتْ بسقوطِ حقيبتها أمامه... وعلى الفورِ انحنى ليرفعَها وهو في أشدِّ حالات الارتباك... انحنتْ (ناني) قليلًا لتأخذها فاقتربا أكثر والتقتْ الأعينُ مباشرةً... شكرته بمودةٍ، وببسمتها الساحرةِ ودَّعته...

لم يلحظْ (حامد) في بحرِ مشاعرِه الفيَّاضِ رفيقاتِها من الفتيات وهن يضحكن ويتغامزن...

انصرفَ من النادي إلى بيته يطيرُ بأجنحةِ السعادةِ والهناءِ... كانتْ الدنيا في عينيه ورودًا ورياحين... حتى بيته – البسيط الضيق المكتظِّ بإخوته وأخواته– رآه قصرًا... لم تَغِبْ عن بالِه لحظةً... نظراتها إليه... كلامها القليل معه... سعادته بسؤالها عن اسمه... وتصريحها بالإعجاب به الذي جسَّدَ كلَّ ما دارَ بينهما... كلمات... بسمات... نظرات... زهرات نضرة اجتمعن معًا ليصنعن باقةً جميلةً تشعُ في قلبه عبيرًا وبهجةً... لكنَّه فجأة تذكَّرَ وضعَهُ إلى جانب وضعها... فهو الشابُ الذي لم يستطعْ أن يستكملَ دراسته واكتفى بالدبلوم، بينما هي ابنة الجامعة الأمريكية... تذكَّرَ ما هاله من حديث العاملين بالنادي عن والدها المليونير الكبير أحد الأعضاء المؤسسين للنادي – الذي يعملُ هو به مجرد عامل نظافة– ذلك الرجل الثري ذو المكانة والوجاهة... كيف يتسنَّى لوالده الموظف البسيط الذي خرجَ على المعاشِ – بعد أنْ أكلتْ الوظيفةُ الحكوميةُ نضارةَ وجهِه– أن

يضعَ يدَهُ في يدِ واحدٍ من أغنى أغنياء البلد... لا يمكنُ أن يتحقَّقَ مثلُ هذا الارتباط ولو في الحُلم!

وتمرُّ الأيامُ وفي كلِّ يومٍ تفتحُ له بابَ الأملِ أكثرَ وأكثر... حتى أصبحَ يحيا على أملِ الارتباطِ بها... تمالكَ شجاعته... حدَّثها صراحةً عن حالِه الذي لم يكن يخفى عليها، وعن حبِّه الطاهر... حدَّثها عن خوفِه من رفضِ والدها المتوقَّعِ... أحيانًا كانَ يضعُ نفسَهُ مكان الأبِ الثريِّ الذي ربَّما ذكَّرَه موقفُه منه بموقفِ الباشا والد (إنجي) من (على) ابن الخولي في قصة "رد قلبي" الذي كادَ يضربُ والده بالكورباج عندما فاتحه في طلب يدها لابنه، واكتفى بطرده وعائلته... كانَ يراها شعلةَ نارٍ متوقدةٍ تشعُ نورًا يعمي الأبصارَ تجذبُ كلَّ من يراها، ويرى نفسَهُ فراشةً تنجذبُ إلى نورِها فتحرقها نارها! وتنساقُ إلى حتفها بيدها!

لكن (ناني) هدهدتْ مخاوفَه التي كانتْ تختلجُ في صدرِه... وطمأنته أنَّ والدَها "راجل لارج" يحترمُ اختيارها ولا يمكنُ أن يضغطَ عليها... هي تحبُّه وتراه زوجًا لها، فهو فارسُها وإن كانَ يركبَ حمارًا أعرجَ!!

ودَّعته (ناني) وانطلقتْ في صحبةِ صديقاتها... يكتمن ضحكاتهن عن مسامعه لا لشيءٍ إلا الخوف من إفساد الخطة المرسومة... وقد بلغَ من تصميمِها على إتمامِ تلك التمثيلية أنَّ إحدى صديقاتها عندما حذَّرتها من

مغبة ذلك، وحاولتْ استدرارَ عطفها على الشابِ المسكينِ، أن اتهمتها بالغيرة منها... أخبرتها أنَّها ماضيةٌ في خطتها حتى وإن تراجع الجميع!

ابتلعتْ ضحكاتُ باقي "الشلة" جميعَ ما اعتمل في قلبِ منافستها من شفقةٍ وإنسانيةٍ وأصبحن كالوحوش الضارية في هيئة الجميلات، فالرِّقَّةُ قلوبٌ وليستْ مجردَ صورٍ، ومفاتنٍ، ومكياجٍ...

لم تلبث (ناني) قليلًا حتى أحسَّتْ بالملِ والفتورِ، فقد أوقعتْ صيدًا سهلًا لم تَبْذُ منه أيَّةُ مقاومةٍ، لذا قرَّرتْ أنْ تنهي الأمرَ سريعًا فتسدلَ الستارَ لتبدأ رواية أخرى مع بطلٍ جديدٍ...

كانتْ (ناني) تجلسُ كعادتها بين أترابها يتسامرن... فتَّشتْ عنه بعينيها... وجدته... كانَ دومًا قريبًا منها... يجدُ سعادته في رؤيتها وإن كان يراها من بعيد...

انطلقتْ إليه، وصديقاتُها يراقبن... أسرَّتْ إليه حديثها أنَّها لم تعدْ تحتملُ فراقَه... واعدته في فيلاتها لمقابلة والدها الذي لا يهتمُ إلَّا بها وبزوج المستقبل الذي لا يهم كونه غنيًا أو فقيرًا... سيغدقُ عليه المالَ ويشتري سعادةَ ابنته وزوجها بكلِّ ما معه...

- لا تخفْ! فأنا أقف بجانبك، ولن أتخلى عنك...

انطلقَ فرحًا يحلِّقُ بأجنحةِ السعادةِ عاليًا يطيرُ فوق السحابِ...

حانَ الموعدُ فسبقه الشوقُ إلى بيتها... ذهبَ وحده... كانَ يخشى على والديه من التعرُّضِ لذلك الثراء الفاحش فيخرَّان مغشيًا عليهما من هول ما يريان!! فليتلقَّ هو الصدمةَ الأولى وحده! فكما أنَّ الأحداثَ المحزنةَ تمثلُ صدمةً قاسيةً فأحيانًا الأحداثُ المفرحةُ تمثِّلُ صدمةً أقسى، ويستوي وقعُ الصدمة الشديدة على النفسِ سواءٌ كانتْ مفرحةً أم محزنةً فكلاهما قد تكونُ قاتلةً!!

وقفَ على أعتابِ فيلاتها الفخمة... كانَ موعدُه مع رجلِ الأعمالِ محددًا بالثانية والدقيقة، فقد كانَ الوقتُ المُخَصَّصُ له لا يتعدَّى وقتَ ارتشافِه فنجانِ الشاي في حديقةِ الفيلا وقت العصرية...

كانَ (جودت) بك في انتظاره، لم يكنْ يعرفُ عنه سوى أنَّه جاءَ يتقدَّمُ لخطبةِ ابنته - وبالضرورة هو ابن عيلة كبيرة- ومَنْ يجرؤُ ويتقدَّمُ لابنته إلَّا أولاد الذوات "المأصلين" أمثاله... لم يكنْ الأبُ بالطبع مشاركًا في تمثيلية ابنته، فقد كانتْ حريصةً ألَّا تخبره بحقيقةِ الشابِ لتضمن أن يكونَ تصرُّفُ الأبِ طبيعيًّا مما يعطي للتمثيلية عنصرَ التشويقِ، والمتعةَ، وجوَّ المفاجآت المثير...

عبرَ (حامد) بوابةَ الفيلا الضخمة التي وجدها مفتوحة... ليخطو خطواتٍ واسعةً في ممشى حديقةٍ مترامية الأطراف خضرتُها تشرحُ القلبَ، وإذ برجلٍ أشيبَ ضخمِ البنيةِ تبدو عليه علامات الثراء والغنى يجلسُ أمام منضدةٍ من نوعِ الأثاثِ الذي يُستخدمُ في فرشِ "الفراندات" والحدائق، كان يرى مثله أثناء عمله في النادي... وقفَ أمامه، وحيَّاه مبتسمًا... رفعَ (جودت) بك عينيه عن الصحيفة التي كانَ يقلِّبُ صفحاتِها والسيجارُ في فمه، فتمهَّلَ في ردِّ التحيةِ حتى نظرَ إليه وفرزه من رأسه إلى أخمصِ قدميه... يبدو أنَّهُ لم ترُقْ له بساطتُه التي بدت عليه، وإن كانَ قد ارتدى أفضل ما عنده، فالرجلُ الخبير كانَ يعرفُ قيمةَ الرجلِ من ثيابه الغالية ذات الماركات العالمية... نظرَ (جودت) بك شزرًا ونفثَ سحابةً سوداءَ من دخانِ سيجارِه الغليظ... غمرتْ أنفاسَ الشابِ فسعلَ وارتبكَ...

وإذ بـ (عثمان) البواب يسعى إليه مهرولًا على الرغم من علاماتِ الهرمِ التي بدتْ واضحةً على هيئتِه المنحنيةِ، وخطواته التي لا يستطيعُ أن يسيطرَ عليها محاولًا اللحاقِ بالشاب الذي دخلَ من البوابةِ أثناء انشغالِه عنها... فانفجرَ فيه قائلًا بلكنته النوبية الواضحة:

- هيه وكالة من غير بواب؟!

وقبل أن يسوقَ الشابُ مبرِّرًا...

سدَّدَ (جودت) بك نظرةً ناريةً إلى (عثمان) وانطلقَ فيه كالمدفع:

- انتوا نايمين على ودانكو؟! انت كبرت يا (عثمان) وخيبت؟! إزاي تسيب الباب سداح مداح لكل من هب ودب؟! دي أشكال تدخل بيتي؟!

حاولَ الشابُ أنْ يوضِّحَ موقفَه، وأنَّه هو الشخصُ المقصودُ الذي ينتظرُه في الموعدِ المحدَّدِ لخطبةِ ابنته... لكن عمَّ (عثمان) تعلَّقَ به بكلِّ ما أوتي من قوةٍ ليجرَّهُ بعيدًا عن (جودت) بك وهو يقولُ:

- اخرج معايا! إحنا ما صدقنا مزاج البيه بتاعنا بقى كويس... اخرج ما تعكرش مزاجه!

استسلم (حامد) ليديَّ الشيخِ الكبيرِ بغيرِ مقاومةٍ حتى أخرجَه من البابِ الخارجيِّ ليغلقَه من الداخل بالسلسلة الضخمة وهو يقولُ:

- امشي! الله يجازيك هتخرب بيتي!

وقف (حامد) على بعد خطواتٍ من بوابةِ الفيلا مبهوتًا لا يعرفُ ماذا يقولُ... وبينما هو على هذا الحال أقبلتْ السيارةُ الفارهةُ التي تقودها (ناني) تزدحمُ "بشلة" من صديقاتها...

وكأَنَ (حامد) وجدَ "لقية"... أسرعَ إليها ليخبرها بسوءِ التفاهم الذي حدثَ مع والدها... تعالتْ الضحكاتُ... انفجرتْ من السيارةِ انفجارًا... ولا يزالُ صاحبنا متعجبًا مما يدورُ حوله... لم يَعِرْ (حامد) ما

حوله اهتمامًا، ولم يلقِ بالًا بما يسمعُ من كلماتِ السخريةِ على لسانِ صديقاتِها... استغنى عن كلِّ ذلك بالنظرِ إلى وجهها لعلَّها تشفي صدرَهُ بكلمةٍ وتطمئنُه!

خلعتْ نظارتَها الشمسيةَ الكبيرةَ التي تغطي نصفَ وجهها... بادرتْه بنظرةٍ ساخرةٍ وابتسامةٍ تحملُ من التهكمِ والاستهانةِ ما تحملُ... أجابته بكلمات لا تقل فظاظةً عن كلماتِ والدها:

- انتَ اتجننت؟! أنا اتجوِّزك انتَ؟! انتَ نسيت نفسك؟!

تعالتْ ضحكاتُ صديقاتها، بينما استماتتْ أصابُعها على "كلاكس" السيارةِ، وأقسى كلماتِ السبابِ ترتفعُ فوقَ صوتِ "الكلاكس" تصبُّ لعناتِها على عمِّ (عثمان) الذي خرجَ أخيرًا من الحجرةِ الصغيرةِ المُخَصَّصَةِ له... هرولَ مرتبكًا... مدَّ يدَه المرتعشةَ ليفتحَ القفلَ ويجرَّ السلسلةَ الضخمةَ... جذبَ البوابةَ لتنفتحَ على مصراعيها وتنطلقَ السيارةُ إلى الداخل وقد امتلأتْ رئةُ الشابِ بغبارِ الشارعِ ودخانِ عادمِ سيارتها، ثم ابتلعتها حديقةُ الفيلا في لحظاتٍ لتختفي عن الأنظارِ...

لم يكدْ يهدأُ جسدُ عمِّ (عثمان) من الجهدِ المضاعفِ الذي بذلَه حتى ناداه (جودت) بك بنبراتٍ غاضبةٍ:

- اقفل البوابة! وما تفتحش لحد! لا مواعيد ولا غيره!

استوى (جودت) بك قائمًا بعد أنْ ألقى الصحيفة على المنضدةِ في ضجرٍ، واندفعَ إلى داخلِ الفيلا متمتمًا في غضبٍ:

- شباب إيه بتوع اليومين دول؟! أنا هفضل استنَّاه لغاية إمتى؟! كان على أيامنا الشباب بيحترموا مواعيدهم... هيكون لي كلام تاني مع البنت دي علشان بعد كده تختار حد يحافظ على مواعيده!

*****